Journal Of the Iraqia University (76-5) August (2026)

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

جمالية البناء السردي في رواية "الفيل الأزرق"

الكاتب المسؤول: أ. د. يحيى معروف، جامعة رازي، كرمانشاه، أيران

استاذ في فرع اللغة العربية وأدابها

مصطفى علي جاسم،

جامعة رازى، كرمانشاه، أيران، فرعاللغة العربية وأدابها

"The Aesthetics of Narrative Structure in the Novel The Blue Elephant"

y.marof@yahoo.com

Mustafa.al19921993@gmail.com

الملخص:

تعد رواية "الفيل الأزرق" للروائي أحمد مراد علامة فارقة في المشهد الروائي العربي المعاصر، ليس فقط لنجاحها الجماهيري، بل لتعقيدها الفني وتداخل مستوياتها السردية. يهدف هذا البحث إلى دراسة البنية السردية للرواية بوصفها نسقاً إبداعياً يزاوج بين "الواقعية النفسية" و"الغرائبية". تنطلق الدراسة من إشكالية جوهرية مفادها: كيف استطاع الكاتب تطويع التقنيات السردية (الزمن، المكان، الصوت) لخدمة الحبكة البوليسية والوجودية في آنٍ واحد، وتحويل الرواية من مجرد سرد حكائي إلى مختبر بنيوي للنفس البشرية؟اعتمدت الدراسة على المنهج البنيوي الوصفي، مع التركيز على مفاهيم السرديات الحديثة؛ حيث تم تفكيك "الزمن السردي" عبر تتبع آليات الاسترجاع والاستباق، وكيفية إبطاء السرد وتسريعه لتوليد التوتر الدرامي. كما تناولت الدراسة "سيميائية المكان"، متخذة من مستشفى العباسية (المصحة) فضاءً دلالياً يتجاوز كونه موقعاً جغرافياً ليصبح رمزاً للعزلة والجنون وتفتت الذات. وبالإضافة إلى ذلك، حلل البحث "الصوت السردي" وتعددية الرؤى لدى الشخصية الرئيسية (يحيى راشد)، وكيف أثر هذا التبئير على مصداقية الأحداث وعلاقة القارئ بالمتن الروائي.وقد خلصت الدراسة إلى أن أحمد مراد نجح في خلق "بناء سردي محكم" استند إلى موازنة دقيقة بين التقنيات الكلاسيكية والحداثية؛ إذ لم تكن العناصر السردية مجرد أطر ثانوية، بل كانت "محركات دلالية" دفعت الأحداث نحو ذروة الصراع. وتُشير النتائج إلى أن تلاحم (الزمان النفسي) مع (المكان الرمزي) قد أسهم في تكريس "الرواية البوليسية النفسية" كنموذج حديث في الأدب العربي، مما يفتح آفاقاً جديدة لقراءة أعمال مراد اللاحقة في ضوء التطورات السردية العالمية.

الكلمات المفتاحية: الفيل الأزرق، أحمد مراد، البناء السردي، الزمن الروائي، سيميائية المكان، السرديات، الرواية المعاصرة، التبئير السردي.

Abstract

The Aesthetics of Narrative Structure in "The Blue Elephant" by Ahmed Mourad: A Study in Narrative Mechanics, Time, and Space Ahmed Mourad's "The Blue Elephant" stands as a significant milestone in contemporary Arabic literature, distinguished not only by its widespread acclaim but also by its intricate artistic complexity and layered narrative structure. This study aims to analyze the narrative framework of the novel as a creative system that synthesizes psychological realism with the surreal. The research addresses a fundamental question: How did the author manipulate narrative techniques—time, space, and voice—to serve both a detective plot and an existential inquiry, thereby transforming the novel from mere storytelling into a structural laboratory for the human psyche?The study adopts a descriptive structuralist methodology, grounded in modern narratological concepts. It deconstructs "narrative time" by tracing mechanisms of analepsis (flashback) and prolepsis (flash-forward), and analyzing how the pacing of the narrative is adjusted to generate dramatic tension. Furthermore, the study explores the "semiotics of space," treating the Al-Abbasiya psychiatric hospital as a semantic domain that transcends its geographical definition to become a symbol of isolation, madness, and the fragmentation of the self. Additionally, the research examines "narrative voice" and the multiplicity of perspectives within the protagonist (Yahya Rashid), analyzing how focalization influences the reliability of events

and the reader's engagement with the text.The study concludes that Ahmed Mourad succeeded in creating a rigorous narrative structure that balances classical and modern techniques. These narrative elements were not secondary frameworks but rather semantic engines that propelled the plot toward its climactic conflict. The findings indicate that the synthesis of psychological time and symbolic space has solidified the "psychological thriller" as a modern archetype in Arabic literature. This study contributes to the critical discourse by demonstrating how Mourad's narrative architecture aligns with global literary developments, opening new avenues for examining his subsequent works through the lens of modern narratology.Keywords: The Blue Elephant, Ahmed Mourad, Narrative Structure, Narrative Time, Semiotics of Space, Narratology, Contemporary Novel, Narrative Focalization.

المقدمة

شهدت الرواية العربية في العقود الأخيرة تحولاتٍ جوهرية جعلت منها الحاضنة الأكبر لتجليات الوعي العربي الحديث، حيث لم تعد مجرد فنٍّ أدبي يُحاكي الواقع، بل تحولت إلى بنية معرفية تستوعب التناقضات والاضطرابات التي تعيشها الذات في مواجهة حداثةٍ مركبة. وتُعد "السردية" كمنهجٍ نقدي الأداةَ الأمثل لتفكيك هذه البنى، إذ يؤكد عبد الله إبراهيم أن السردية العربية هي امتدادٌ تراكمي للموروث الحكائي العربي، وليست مجرد استعارة للنماذج الغربية، وهو ما يستدعي قراءة النص الروائي بوصفه جزءاً من منظومة ثقافية متصلة (إبراهيم، ٢٠٠٩، ص: ٤٧). هذا الربط بين التراث والواقع هو ما يفسر طغيان "الرواية العربية" كجنس أدبي مهيمن، فهي، كما يرى محمد برادة، تمثل "بنية دلالية" قادرة على رصد التحولات السياسية والاجتماعية من خلال آليات السرد المتعددة (برادة، ٢٠١٢، ص: ٥٥)إن دراسة البنية السردية في الرواية المعاصرة تقتضي الغوص في تقنيات "تشكيل الزمن" و"تعدد الأصوات"، وهي التقنيات التي تجعل من الرواية فضاءً حوارياً بامتياز. ففي نظر يمنى العيد، لا يكتفي السارد بنقل الأحداث، بل يعمل على هندسة "تقنيات السرد" ليخلق علاقة تفاعلية مع القارئ، حيث يتحول النص إلى مختبرٍ للقيم والأفكار (العيد، ٢٠٠٥، ص: ٣٥). ويتقاطع هذا الطرح مع رؤية فيصل دراج الذي يرى في "تحولات السرد" استجابةً لأزمات الواقع، حيث يسعى الروائي العربي إلى إعادة صياغة العالم عبر سردٍ يتمرد على الخطية التقليدية (دراج، ٢٠١١، ص: ٧٠). ولا شك أن صلاح فضل قد أصاب حين عدّ هذه التحولات جزءاً من مشروع "تحديث الرواية العربية"، الذي استطاع استيعاب الوافد وتطويعه لخدمة الهموم المحلية (فضل، ٢٠١٠، ص: ١٢٠)ولا يمكن الحديث عن البنية السردية دون التطرق إلى "الرمزية والغرائبية"، وهي المفاصل التي تشكل جوهر التجربة الروائية في نصوص مثل "الفيل الأزرق" لأحمد مراد. فالغرابة هنا ليست هروباً من الواقع، بل هي، وفقاً لعبد الفتاح كيليطو، "أدبٌ يكشف المستور" ويستنطق المسكوت عنه في الثقافة، إذ يتداخل فيها الميثولوجي بالواقعي لتشكيل رؤية مشوهة ومثيرة للذات (كيليطو، ٢٠١٠، ص: ٤٠). هذا التداخل الرمزي يجد جذوره في الدراسات التي بحثت في "مصادر الرمزية"، حيث يؤكد غالي شكري وحسين الواد أن توظيف الرمز في الأدب الحديث ليس ترفاً بلاغياً، بل هو استراتيجية إبداعية لنقل المعاني التي يعجز السرد المباشر عن إيصالها (شكري، ٢٠٠٧، ص: ٩٥)؛ (الواد، ٢٠٠٤، ص: ٥٠)وعلى صعيد اللغة، يظل التساؤل عن العلاقة بين "اللغة والإبداع" حيوياً لفهم جودة النص الروائي، فكما يرى عز الدين إسماعيل، إن اللغة في الرواية ليست وعاءً محايداً، بل هي طاقة تعبيرية تنفجر دلالاتها من خلال السياق (إسماعيل، ٢٠٠١، ص: ٨٥). هذا البعد الدلالي الذي ينبهنا إليه بوعلي ياسين يتطلب من القارئ "مدخلاً إلى الدلالة الأدبية" يجاوز السطح إلى العمق (ياسين، ٢٠٠٦، ص: ٦٥). وكل هذه الرؤى تتقاطع في "المرشد إلى فهم الأدب العربي" الذي وضعه عبد الله الطيب، مؤكداً أن جوهر الإبداع العربي يكمن في قدرته الدائمة على التجدد والابتكار ضمن معايير الجمالية العربية (الطيب، ٢٠٠٩، ص: ١١٠)تأسيساً على ما سبق، يهدف هذا البحث إلى دراسة رواية "الفيل الأزرق" لأحمد مراد (مراد، ٢٠١٢، ص: ١٥)، باعتبارها نموذجاً تطبيقياً لهذه الرؤى النقدية. إننا لا نسعى لتقديم قراءة انطباعية، بل نهدف إلى تفكيك "آليات السرد" و"أنساق الرمز" في الرواية، مستندين إلى هذا الزخم النقدي الذي قدمه كبار النقاد العرب، وذلك لبيان كيف استطاع مراد أن يحول الذاكرة والأسطورة إلى مادة سردية مشوقة، وكيف وظف البنية السردية لخدمة الرؤية الفكرية والجمالية لنصه الروائي.

الدراسات السابقة وموقع البحث منها

لقد حظيت الرواية العربية المعاصرة باهتمام نقدي واسع، وتعد رواية "الفيل الأزرق" لأحمد مراد واحدة من النصوص التي أثارت جدلاً نقدياً لافتاً نظراً لتداخل مستوياتها السردية. وبالعودة إلى الدراسات السابقة التي تناولت بنية السرد والرمز، يمكن تقسيم الجهود النقدية إلى اتجاهين رئيسيين:

أولاً: الدراسات البنيوية والتقنية (السرد والزمن):

ركزت هذه الدراسات على الأدوات التقنية في الرواية العربية، مستندة إلى أطروحات نقدية صلبة. فعلى سبيل المثال، قدم عبد الله إبراهيم في كتابه "السردية العربية" تأصيلاً لبنية الحكاية، وهو ما يمثل مرجعاً أساسياً لفهم التحول من الموروث إلى الحداثة (إبراهيم، ٢٠٠٩، ص: ٤٧). وفي السياق ذاته، سعت يمنى العيد في كتابها "تقنيات السرد الروائي" إلى تفكيك علاقة الراوي بالزمن، وهي رؤية تتقاطع مع ما طرحه محمد برادة حول "بنية الدلالة" في الرواية العربية (العيد، ٢٠٠٥، ص: ٣٥)؛ (برادة، ٢٠١٢، ص: ٥٥). هذه الدراسات تشكل الإطار الذي يفسر كيف أدار "مراد" تقنيات السرد في روايته (مراد، ٢٠١٢، ص: ١٥).

ثانياً: الدراسات الموضوعاتية (الرمز والغرائبية):

اتجه فريق آخر من النقاد إلى دراسة "المضمون الرمزي" والغرائبي. حيث يبرز كتاب عبد الفتاح كيليطو "الأدب والغرابة" كمرجع حيوي لفهم كيف يكسر النص الروائي مألوف الواقع (كيليطو، ٢٠١٠، ص: ٤٠). كما عززت دراسات غالي شكري وحسين الواد هذا المسار من خلال تتبع أصول الرمزية في الأدب الحديث، مؤكدين أن الرمز ليس زينة، بل هو جوهر الرؤية الفنية (شكري، ٢٠٠٧، ص: ٩٥)؛ (الواد، ٢٠٠٤، ص: ٥٠). وتتكامل هذه الرؤى مع ما أشار إليه فيصل دراج وصلاح فضل حول تحولات السرد التي استجابت لأزمات الذات العربية المعاصرة (دراج، ٢٠١١، ص: ٧٠)؛ (فضل، ٢٠١٠، ص: ١٢٠).

موقع البحث الحالي:

على الرغم من أهمية هذه الدراسات، إلا أن البحث الحالي يتميز بكونه محاولة "تكاملية"؛ فهو لا يكتفي بالجانب البنيوي أو الرمزي بمعزل عن الآخر، بل يربط بينهما في تحليل رواية "الفيل الأزرق". حيث نسعى لاستنطاق لغة النص (إسماعيل، ٢٠٠١، ص: ٨٥)، وتوظيف المنهجيات النقدية التي حددها عبد الله الطيب وبوعلي ياسين لتقديم قراءة لا تقف عند حدود الحكاية، بل تغوص في معمارها الكلي، وهو ما يمنح هذا البحث قيمته المضافة في المكتبة النقدية (الطيب، ٢٠٠٩، ص: ١١٠)؛ (ياسين، ٢٠٠٦، ص: ٦٥).

المبحث الأول: بنية السرد والزمن في رواية "الفيل الأزرق"

تعد البنية السردية في الرواية المعاصرة بمثابة "الهيكل العظمي" الذي يمنح العمل الفني تماسكه وقدرته على التأثير. فهي ليست مجرد تتابع للأحداث، بل هي نظام معرفي متكامل، يعيد تشكيل الواقع عبر أدوات فنية دقيقة. في هذا المبحث، نسعى لتفكيك هذه البنية في رواية "الفيل الأزرق" لأحمد مراد، مستندين إلى المنهج السردي الذي يرى في النص الروائي ساحة لتفاعل الزمن مع الوعي.

١. العتبات النصية (Paratexts): مدخل القارئ

قبل الولوج إلى متن الحكاية، تفرض الرواية على القارئ مواجهة "عتباتها النصية" التي حددها جيرار جينيت باعتبارها "المنطقة الفاصلة" بين النص وخارجه. إن عنوان الرواية "الفيل الأزرق" ليس مجرد تسمية، بل هو "شفرة" (Code) سيميائية؛ فالفيل في الموروثات يحمل دلالات الذاكرة والضخامة، واقترانه باللون الأزرق (لون الغموض والهلوسة) يضع القارئ منذ اللحظة الأولى في حالة تأهب للغرائبي. إن الغلاف، والاقتباسات الاستهلالية، تعمل كـ "مرشحات" توجه تلقي القارئ، وتحدد نوع "العقد" التي سنحاول فكها لاحقاً.

٢. التأصيل النظري للسردية العربية

يرى عبد الله إبراهيم في دراسته الموسوعية "السردية العربية" أن السرد هو "آلية معرفية" لاستعادة الذاكرة الجماعية. فالحكاية العربية لم تتوقف عند حدود السير الشعبية، بل تطورت في الرواية الحديثة لتصبح أداة لاستكشاف أزمات الوجود (إبراهيم، ٢٠٠٩، ص: ٤٧). هذا التطور يلاحظ بوضوح عند أحمد مراد، الذي يستثمر "الموروث الحكائي" (عبر استدعاء الأساطير والرموز) ويضعه في قالب سردي معاصر، مما يكسر حدة التقليد ويخلق لغة جديدة للرواية (مراد، ٢٠١٢، ص: ٢٥). وفي هذا السياق، تؤكد يمنى العيد أن تقنيات السرد الروائي ليست محايدة؛ فهي دائماً تحمل "أيديولوجيا السارد" ورؤيته للعالم، حيث يتحول النص من مجرد حكاية إلى "فضاء حواري" يشارك فيه القارئ عبر استنطاق الرموز والمواقف (العيد، ٢٠٠٥، ص: ٣٥).

٣. التناص (Intertextuality) وبناء النص

لا توجد رواية "الفيل الأزرق" في فراغ نصي، بل هي "حوار" مفتوح مع نصوص سابقة. يبرز مفهوم "التناص" هنا كأداة مركزية؛ فاستدعاء أحمد مراد للمخطوطات القديمة، والرموز التاريخية (كالوشوم)، والنصوص الطبية التي يستند إليها يحيى، لا يعد حشواً سردياً، بل هو بناء موازٍ للنص. هذا التناص يعمل كجسر يربط بين "زمن الرواية" و"زمن التاريخ"، مما يمنح النص ثقلاً معرفياً. إن استدعاء الموروث التاريخي في الرواية يجعلها نصاً

"مُركباً" يتطلب قارئاً قادراً على تفكيك الطبقات النصية؛ فكل "وشم" أو "مخطوطة" هو نص داخل النص، يساهم في بناء العالم الذي تتخبط فيه الشخصيات.

٤. ميكانيكا الزمن (الاسترجاع والاستباق)

إن جوهر الرواية في "الفيل الأزرق" يكمن في إدارتها للزمن. وهنا نعتمد على نظرية جيرار جينيت في "خطاب الحكاية"، الذي يميز بين زمن الحكاية وزمن السرد. يستخدم مراد تقنية "الاسترجاع" (Analepsis) بكثافة؛ حيث يعود البطل (يحيى) بذاكرته إلى ماضيه المهني والشخصي، ليس كفعل تذكري مجرد، بل كضرورة درامية لفهم الحاضر المأزوم (جينيت، ١٩٩٧، ص: ٦٥). إن هذا التلاعب بالزمن يجعل الرواية "دائرية" وليست خطية؛ فكلما تقدم السرد للأمام، نعود للخلف، مما يخلق حالة من التوتر المستمر لدى القارئ. هذا التوتر يفسره محمد برادة بكونه "تأزيماً للبنية الدلالية"؛ حيث لا يجد القارئ راحة في التسلسل، بل يظل مشدوداً لربط خيوط الزمن ببعضها (برادة, ٢٠١٢، ص: ٧٥).

٥. سلطة السارد والوعي المتشظي

يمثل يحيى راشد في الرواية "ساروماً مأزوماً". وبدلاً من السارد العليم الذي يعرف كل شيء، نجد سارداً يكتشف الحقيقة مع القارئ. هذا التغيير في وجهة النظر هو ما يسميه صلاح فضل "تحول الرواية العربية"، حيث انتقلنا من سرد البطولات إلى سرد "الإنسان المهمش" أو "الذات المكسورة" (فضل، ٢٠١٠، ص: ١٢٠). إن هذا السارد، رغم ضعفه، يمتلك سلطة "توجيه الانتباه"؛ فهو يختار ما يرويه وما يخفيه، مما يخلق فجوات سردية يملؤها القارئ بخياله. ويرى فيصل دراج أن هذا النمط من السرد هو انعكاس لأزمات الواقع العربي؛ حيث يصبح "الاضطراب النفسي" للسارد مرآةً لاضطراب المجتمع ككل (دراج، ٢٠١١، ص: ٨٨).

٦. التداخل بين الواقعي والغرائبي

في "الفيل الأزرق"، لا تسير البنية السردية في خط الواقعي الصرف، بل تتداخل مع الغرائبي. وهنا نستحضر رؤية عبد الفتاح كيليطو الذي يرى في الغرابة "أداةً للكشف"؛ فعندما يواجه السارد الغموض (الوشم، الرموز، الجني)، فإنه يضطر لتغيير لغته السردية (كيليطو، ٢٠١٠، ص: ٤٠). هذا التحول اللغوي هو ما يعزز رؤية عز الدين إسماعيل بأن اللغة في الرواية هي "طاقة تعبيرية" تتجاوز وظيفتها التواصلية لتصبح أداة لصنع الجو النفسي للنص (إسماعيل، ٢٠٠١، ص: ٨٥). إن دمج هذه التقنيات معاً، يجعل من الرواية بنية معقدة تتطلب قارئاً يقظاً، قادراً على تتبع "خيوط السرد" بين عالم يحيى الطبي وجنون العالم الآخر (الطيب، ٢٠٠٩، ص: ١١٠)ختاماً، إن البنية السردية في رواية "الفيل الأزرق" ليست بناءً عشوائياً، بل هي هندسة مدروسة تبدأ من العتبات النصية التي تهيئ ذهن القارئ، وتمر عبر "تناصٍ" ثري مع التاريخ والموروث، وتنتهي بـ "تلاعب بالزمن" و"تعدد مستويات الوعي". إن نجاح أحمد مراد في هذا العمل يكمن في قدرته على تطويع هذه التقنيات لخدمة رؤيته الفكرية، محولاً النص من مجرد تسلية إلى بحثٍ في جوهر الذات العربية.

المبحث الثاني: الصوت السردي والتبئير في رواية "الفيل الأزرق"

إذا كان المبحث الأول قد ركز على "هيكل" الزمن، فإن هذا المبحث ينتقل إلى "الذات" التي تحرك هذا الهيكل. الصوت السردي ليس مجرد وسيلة لنقل الأحداث، بل هو العدسة التي نرى من خلالها العالم. في رواية "الفيل الأزرق"، لا يكتفي أحمد مراد بسرد قصة، بل يورطنا في "رؤية" بطل يعاني من تصدع في إدراكه، مما يجعل دراسة الصوت السردي مفتاحاً لفهم الحقيقة المراوغة في النص.

١. الهيمنة الذاتية للسارد (صوت "الأنا")

يعتمد مراد في روايته على ضمير المتكلم (أنا)، مما يمنح السرد "حميمةً" خاصة. يحيى راشد ليس مجرد مراقب، بل هو فاعلٌ ومنفعل؛ هو الذي يختار ما يخبرنا به وما يخفيه. هذه الهيمنة الذاتية تجعل من الرواية "اعترافاً" أكثر منها "حكاية". يرى رولان بارت أن السارد بصيغة المتكلم يقلص المسافة بين القارئ والشخصية، مما يجعلنا نتماهى مع ارتباك يحيى وخوفه بدلاً من أن نكون مجرد مراقبين موضوعيين (بارت، ١٩٨٠، ص: ٥٥).

٢. التبئير الداخلي (Internal Focalization)

تعتمد الرواية على "التبئير الداخلي"؛ حيث نرى العالم من خلال عيني يحيى راشد فقط. نحن لا نعرف عن "شريف" أو "نائلة" إلا ما يراه يحيى، ولا نعرف عن "المخطوطات" إلا ما يدركه هو في لحظات تشتته أو صفائه. هذا النوع من التبئير يجعل الواقع في الرواية "مشروطاً بحالة السارد النفسية". فإذا كان السارد مضطرباً (بسبب تعاطي المخدرات أو الضغط النفسي)، فإن العالم الذي يراه يصبح بدوره مضطرباً، وهو ما يفسر التداخل بين الحقيقة والهلوسة في النص (جيرار جينيت، ١٩٩٧، ص: ١٩٠).

٣. الميتا–سرد (Meta–narrative): حين يكتب النصُ نفسَه

تعد هذه الفقرة جوهرية في تحليلنا؛ فـ "الفيل الأزرق" ليست مجرد رواية تقليدية، بل هي "نص يتأمل ذاته". نجد يحيى راشد (السارد) يمارس فعل "البحث" وتدوين الملاحظات؛ فهو يحلل حالته النفسية، ويعلق على كونه "طبيباً نفسياً" يكتب عن "مرضى نفسيين". إن هذا "الميتا–سرد" يجعل القارئ يتساءل: هل يحيى يروي لنا قصة، أم أنه يكتب مذكراته لمحاولة فهم ما يحدث له؟ إن تحول البطل إلى "مؤرخ لذاته" يمنح الرواية بعداً نقدياً، حيث يصبح فعل الكتابة بحد ذاته "محاولة لترتيب الفوضى"، مما يضعنا أمام مرآة تعكس عملية الإبداع الروائي نفسها (أمبرتو إيكو، ٢٠٠٥، ص: ٦٠).

٤. إشكالية السارد "غير الموثوق" (The Unreliable Narrator)

يعد يحيى راشد نموذجاً مثالياً لـ "السارد غير الموثوق". إن تداخل المخدرات، وفقدان الذاكرة، والماضي المأساوي، يجعلنا كقراء نشك في صدق ما يقوله. هذا الارتياب ليس ضعفاً في البناء السردي، بل هو "تقنية متعمدة" لزيادة التوتر. يرى واين بوث أن السارد غير الموثوق يفرض على القارئ مهمة "التنقيب عن الحقيقة" خلف سطور الراوي، مما يجعل القراءة فعل مشاركة لا فعل تلقٍ سلبي (بوث، ١٩٩٠، ص: ١٥٨).

٥. العلاقة الجدلية بين السارد والقارئ

لا يكتفي مراد بجعلنا نقرأ، بل يجعلنا "نحقق" مع السارد. من خلال "الفجوات السردية" التي يتركها يحيى، يضطر القارئ لملء هذه الفراغات. هذه العلاقة الجدلية هي التي تفسر سرعة إيقاع الرواية؛ فنحن لا ننتظر من يحيى أن يخبرنا بالنهاية، بل نحن "نستبق" أحداثه لنحلل ما إذا كان صادقاً أم يهذي. إن هذا "التفاعل" يحول القارئ إلى شريك في إنتاج المعنى داخل النص.

٦. تقنيات التذكر كأداة لبناء الشخصية

أخيراً، يستخدم السارد "تقنيات التذكر" (الفلاش باك) ليس فقط لتفسير الأحداث، بل لتبرير أفعاله الحالية. إن عودة يحيى إلى حادثة وفاة زوجته وابنته ليست مجرد استرجاع للماضي، بل هي "المحرك" الذي يبرر كل أفعاله الغريبة في الحاضر. الصوت السردي هنا يعمل كآلة زمنية، يعود للماضي ليجد التفسير للمأزق الحالي، مما يربط "الذات" بالزمن ربطاً وثيقاً لا انفصام فيه.

إن الصوت السردي في رواية "الفيل الأزرق" ليس صوتاً أحادياً، بل هو صوت "متشظٍ" يحاول لملمة شتات نفسه عبر فعل الكتابة (الميتا–سرد). من خلال التبئير الداخلي والاعتماد على سارد غير موثوق، نجح أحمد مراد في تحويل عملية "السرد" من مجرد سرد للحكاية إلى "رحلة في أعماق النفس البشرية"، مما يجعل القارئ جزءاً لا يتجزأ من صراع السارد مع حقيقته.

المبحث الثالث: المكان بوصفه فضاءً للحدث والدلالة

إن المكان في رواية "الفيل الأزرق" ليس مجرد مسرحٍ للأحداث، بل هو "شريك سردي" يعيد تشكيل وعي الشخصيات. فهو يتجاوز كونه حيزاً جغرافياً ليصبح "فضاءً دلالياً" يتقاطع مع زمن السرد ليمنح النص عمقه الوجودي. في هذا المبحث، نحلل كيف تحول المكان من حيز فيزيائي إلى منظومة تعبر عن صpaعات "يحيى راشد" الداخلية.

١. المستشفى (فضاء السلطة والمراقبة)

يمثل مستشفى العباسية "الفضاء المؤسسي" الذي يمارس سطوته على السارد. يرى عبد الله إبراهيم أن السرد هو "آلية معرفية" لاستعادة الذاكرة، والمكان هنا هو المختبر الذي يستعيد فيه يحيى ذاكرته المفقودة (إبراهيم، ٢٠٠٩، ص: ٥٢). إن اختيار المستشفى مركزاً للحدث لا يبرر فقط وجود الغموض، بل يجعل من المكان "سلطة" تراقب السارد وتحاصره. وتؤكد يمنى العيد في هذا السياق أن تقنيات السرد في الرواية ليست محايدة؛ فالمكان في الرواية العربية الحديثة يعكس "أيديولوجيا السارد" ورؤيته، فالمستشفى هنا هو سجن اختياري بقدر ما هو فضاء للتحليل النفسي (العيد، ٢٠٠٥، ص: ٤٠).

٢. الفضاء التاريخي والغرائبي (المخطوطات والوشم)

بجانب الفضاء الواقعي، تبرز "الأمكنة التخيلية" المرتبطة بالمخطوطات. هذا الفضاء هو نقيض المستشفى؛ فبينما يمثل المستشفى "المنطق والطب"، تمثل المخطوطات والوشوم "الفوضى والغيبيات". يستحضر عبد الفتاح كيليطو مفهوم الغرابة بوصفها "أداةً للكشف"؛ فعندما يغوص يحيى في عالم المخطوطة، يغير لغته السردية ليواجه الغموض (كيليطو، ٢٠١٠، ص: ٤٥). هذا المكان المتخيل هو مخزنٌ للرموز والذاكرة الجماعية التي يحاول يحيى استنطاقها، مما يحول المكان من مادة صماء إلى "فضاء مشحون" بالدلالات التاريخية التي لا يراها إلا البطل المأزوم.

٣. المدينة (القاهرة): الواقع الذي يتآكل

تعمل مدينة القاهرة كـ "فضاء رابط" بين الواقعي والغرائبي. يرى صلاح فضل أن الرواية العربية تحولت من سرد البطولات إلى سرد "الذات المكسورة" التي تعيش اغترابها في قلب المدينة (فضل، ٢٠١٠، ص: ١٢٥). إن القاهرة في الرواية ليست ديكوراً، بل هي شاهد على انهيار "اليقين". فمع توغل

الغرائبيات (الوشم، الجن، المخطوطات)، يبدأ هذا الفضاء "الواقعي" في التآكل، حيث تتحول الشوارع والبيوت المألوفة إلى أماكن موحشة، مما يعزز إحساس البطل بالتيه.

٤. "العتبة" كفضاء للتحول

تظهر في الرواية أماكن تمثل "عتبات" (ممرات المستشفى، غرف المخطوطات، الفراغ بين الوعي واللاوعي). ويرى فيصل دراج أن الاضطراب النفسي للسارد هو مرآة لاضطراب المجتمع، وهذا الاضطراب يتجسد في "الأمكنة الضيقة" التي يحشر فيها السارد نفسه (دراج، ٢٠١١، ص: ٩٢). ففي هذه المساحات البينية، يتلاشى الفاصل بين هوية يحيى وهويات الآخرين (نائل/شريف)، مما يجعل من المكان انعكاساً لضيق أفق البطل وحصاره النفسي، وهو ما يخدم الرؤية التي طرحها عز الدين إسماعيل بأن اللغة والمكان يشكلان "طاقة تعبيرية" لصنع الجو النفسي للرواية (إسماعيل، ٢٠٠١، ص: ٩٠).

٥. جدلية الداخل والخارج

يعمل المكان وفق جدلية "الداخل والخارج". يحيى يحاول حماية "داخله" (عقله، ذكرياته) من "الخارج" (المستشفى، ضغوط التحقيق). هذه السيولة المكانية تعزز حالة التشتت التي يعيشها السارد، حيث يقتحم المكان الخارجي وعي البطل، وتتجسد هلوساته في الخارج. إن هذا التداخل يؤكد أن أحمد مراد استثمر المكان كآلية سردية لتمزيق وحدة الذات لدى السارد، مما يمنع القارئ من الاستقرار في مكان واحد، ويجبره على المشاركة في رحلة البحث عن الحقيقة المفقودة.

يعد المكان في رواية "الفيل الأزرق" شريكاً أساسياً في صناعة الحدث. إنه ليس مجرد إطار، بل هو "فاعل سردي" يساهم في بناء التوتر وتعميق أزمة البطل. من خلال الانتقال بين فضاء المستشفى العقلاني، وفضاء المخطوطات الأسطوري، وفضاء القاهرة الواقعي، نجح أحمد مراد في خلق "جغرافيا سردية" معقدة تجعل من الرواية رحلة لا تكتمل إلا بفك شفرات هذه الأمكنة.

الخاتمة: النتائج والرؤية الختامية

بعد أن قمنا بتفكيك البنية السردية لرواية "الفيل الأزرق" عبر المباحث الثلاثة السابقة، مستندين إلى المنهج السردي والتحليلي، نصل في هذه الخاتمة إلى بلورة النتائج الأساسية التي خلصت إليها الدراسة، ومن ثم تقديم رؤية إجمالية حول قيمة العمل الأدبي المدروس.

أولاً: أهم النتائج

لقد كشف التحليل عن جملة من النتائج التي يمكن إجمالها في النقاط التالية:

١. هندسة الزمن: أثبتت الدراسة أن أحمد مراد لم يعتمد الخطية التقليدية، بل تبنى بنية "دائرية" تعتمد كثافة الاسترجاع (Analepsis). وهذا التلاعب بالزمن ليس مجرد تقنية فنية، بل هو "ضرورة درامية" لخدمة تشتت وعي السارد (يحيى راشد)، مما يضع القارئ في حالة توتر دائم، ويحقق ما أسماه محمد برادة "تأزيماً للبنية الدلالية".

٢. سلطة السارد والوعي المتشظي: أظهر البحث أن السارد في الرواية يمثل نموذجاً لـ "السارد غير الموثوق"، الذي يتحول من مراقب للأحداث إلى جزءٍ من اضطرابها. لقد نجح الكاتب في تحويل فعل الكتابة إلى "ميتا–سرد"، حيث يحلل البطل وجوده عبر تدوين معاناته، مؤكداً رؤية فيصل دراج بأن الاضطراب النفسي للسارد هو مرآة لاضطراب المجتمع العربي ككل.

٣. فاعلية المكان: خلصت الدراسة إلى أن المكان في الرواية ليس خلفية جامدة، بل "شريك سردي" بامتياز. فقد تحول مستشفى العباسية من مكان فيزيائي إلى "فضاءٍ هيتروتوبي" يجمع المتناقضات، بينما تحولت القاهرة إلى فضاء يتآكل بفعل الغرائبيات. هذا التوظيف المكاني يتماشى مع رؤية عبد الفتاح كيليطو في اعتبار الغرابة "أداةً للكشف" عن خفايا النفس البشرية.

٤. اللغة كطاقة تعبيرية: تأكد لنا، بناءً على رؤية عز الدين إسماعيل، أن اللغة في الرواية تجاوزت وظيفتها التواصلية لتصبح "طاقة تعبيرية" خلقت مناخاً نفسياً مشحوناً، حيث تداخل الواقعي بالأسطوري بفضل لغة استطاعت استنطاق الرموز والموروث الحكائي.

ثانياً: الرؤية الختامية

إن قراءة رواية "الفيل الأزرق" من خلال عدسة البنية السردية، والزمن، والصوت، والمكان، تؤكد لنا أننا أمام نصٍ روائي لا يكتفي بمحاكاة الواقع، بل يعيد بناءه معرفياً وفنياً. لقد نجح أحمد مراد في تحويل الرواية من مجرد تسلية بصرية أو "تشويق" (Thriller) إلى ساحة لبحثٍ وجوديٍ عميق في أزمة الذات العربية الممزقة بين ثقل التراث (المخطوطات والوشم) وانهيارات الحاضر (الواقع الطبي والاجتماعي).

إن قوة الرواية تكمن في قدرة كاتبها على "التلاعب" بوعي القارئ عبر الفجوات السردية والتبئير الداخلي، مما يجعل القراءة فعل مشاركة لا فعل تلقٍ سلبي. وبذلك، فإن "الفيل الأزرق" تظل علامة فارقة في الرواية العربية المعاصرة؛ ليس لأنها حققت انتشاراً جماهيرياً فحسب، بل لأنها استطاعت تطويع التقنيات السردية العالمية لخدمة قضايا محلية وإنسانية شائكة، مما يجعلها نصاً مفتوحاً على تأويلات نقدية متعددة تستحق الدراسة والتحليل.

المصادر والمراجع:

١. إبراهيم، عبد الله (٢٠٠٩). السردية العربية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٢. إسماعيل، عز الدين (٢٠٠١). اللغة والأسلوب في الرواية العربية. القاهرة: دار الفكر العربي.

٣. باشلار، غاستون (١٩٨٤). جماليات المكان. ترجمة: غالب هلسا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات.

٤. برادة، محمد (٢٠١٢). متاهات السرد. الدار البيضاء: دار الأمان.

٥. دراج، فيصل (٢٠١١). نظرية الرواية والرواية العربية. بيروت: المركز الثقافي العربي.

٦. شكري، غالي (٢٠٠٧). الرمزية في الأدب الحديث. القاهرة: دار المعارف.

٧. الطيب، عبد الله (٢٠٠٩). المرشد إلى فهم أشعار العرب. الخرطوم: جامعة الخرطوم.

٨. العيد، يمنى (٢٠٠٥). تقنيات السرد الروائي. بيروت: دار الفارابي.

٩. فضل، صلاح (٢٠١٠). بلاغة الخطاب وعلم النص. القاهرة: عالم الكتب.

١٠. كيليطو، عبد الفتاح (٢٠١٠). العين والإبرة. بيروت: دار توبقال.

١١. مراد، أحمد (٢٠١٢). الفيل الأزرق. القاهرة: دار الشروق.

١٢. الواد، حسين (٢٠٠٤). تأويل الرواية. تونس: دار محمد علي للنشر.

١٣. ياسين، بوعلي (٢٠٠٦). الرواية العربية والواقع. دمشق: دار الحوار.